

# المعلم بر مهنسا و طاغور يتبادلان الآراء



"لقد علمنا رابندرانات طاغور كي يكون غناؤنا طبيعياً و عفويّاً كوسيلة للإعراب عن النفس،  
تماماً كالطيور المغردة."

جاءني هذا التفسير من بهولانات، وهو فتى متقد الذكاء في الرابعة عشرة بمدرسة رانشي،  
بعد أن أثنت ذات صباح على غنائه الرخيم. وبمناسبة أو بدون مناسبة كان الصبي يتدفق  
بالألحان كالجدول المتناسق النغم. وكان قد درس قبلا في مدرسة طاغور الشهيرة  
سانتيناكيتان التي تعني "مرفاً السلام" في بولبور.

وقلت لرفيقي: "لقد ترددت أناشيد رابندرانات على شفتي منذ بواكير الشباب. فالبنغاليون  
بأسرهم، حتى القرويون الأميون منهم، يستمتعون لدرجة كبيرة بأشعاره السامية."  
وأشدت مع بهولا بعض الأبيات لطاغور الذي وضع للألحان الموسيقية آلاف القصائد الهندية،  
بعضها من تأليفه وبعضها قديم.

وبعد أن انتهينا من الغناء قلت ضاحكاً: "لقد التقيت برابندرانات فور حصوله على جائزة نوبل  
للآداب. ولقد شعرت برغبة ملحة لزيارته نظراً لإعجابي بجرأته غير الدبلوماسية في التعامل  
مع ناقديه."

واستفهم بهولا عن القصة بشوق، فقلت: "تناول علماء اللغة طاغورَ بالنقد المرير لأنه أدخل  
لوناً جديداً على الشعر البنغالي بمزجه العبارات العامية والكلاسيكية دون مراعاة للحدود  
اللغوية التي يعتز بها اللغويون. وتتضمن أشعاره حقائق فلسفية عميقة في عبارات وجدانية  
جذابة، دون التقيد بالصيغ الأدبية المتعارف عليها.

"و ذات مرة وصف أحد النقاد من ذوي النفوذ رابندرانات - باستخفاف وازدراء - بأنه ' شاعر الحَمام الذي باع هديله للمطابع بثمن زهيد، لكن انتقام طاغور كان حاضراً! فعالم الأدب في الغرب قام بأسره بتأدية واجب الإكرام عند قدميه فور نقله إلى الإنكليزية كتابه (غيتانجالي: قرابين الغناء). حينذاك توجه بالقطار إلى سانتينيكتيان جمع غفير من العلماء، من بينهم ناقدوه السابقون، لتقديم التهاني.

"واستقبل رابندرانات زائريه بعد تأخر طويل متعمد، ثم أنصت لثنائهم المعسول في صمت وعدم اكتراث. أخيراً صوّب نحوهم أسلحة انتقادهم قاتلاً:

"أيها السادة، إن ورود التبجيل والتكريم العاطرة التي تقدمونها لي هنا ممزوجة بالروائح النتنة لآزدرانكم السابق. فهل من صلة بين حصولي على جائزة نوبل وبين تقديركم المبالغت هذا؟ فأنا ما زلت نفس الشاعر الذي أثار حفيظتكم عندما قدمت زهوري المتواضعة في مزار البنغال."

"ونشرت الصحف ملخصاً لتعنيف طاغور الجريء، وقد أعجبت بصراحة رجل لم يندفع بالتملق والرياء."

"وقد قدمني إلى رابندرانات في كلكتا سكرتيره المستر سي أف. أندروس<sup>(1)</sup> الذي كان يرتدي ببساطة الثياب البنغالية، وكان يشير بمودة إلى طاغور بأنه سيده الملاكي (غوروديفا)

"استقبلني رابندرانات استقبالا طيباً وكانت تحيط به هالة من الجاذبية والثقافة العريقة والمجاملة الصادقة. وأجاب طاغور على سؤالي عن منابع أدبه بأن إلهاماته الأساسية استوحاها من ملاحمنا الدينية ومن آثار الشاعر فيدياباتي الذي عاش في القرن الرابع عشر." وإذ ألهمتني هذه التذكارات بدأت أنشد أغنية بنغالية قديمة كان قد صاغها طاغور في قالب جديد، مطلعها "أشعل.. أشعل.. أشعل مصباح حبك." وشاركني بهولا في الإنشاد البهيج ونحن نتجول في باحة المدرسة.

بعد حوالي السنين من تأسيس مدرسة رانشي تلقيت دعوة من رابندرانات لزيارته في سانتينيكتيان لأبحث مثلنا التربوية، فقبلت الدعوة بسرور وذهبت للقائه. وعندما وفدت إليه كان جالساً إلى مكتبه، وقد بدا لي نموذجاً رائعاً للرجولة الصادقة حسبما يتصورها أي رسام. فوجهه الوسيم ذو الملامح الدقيقة كان يشع نبلاً وكرامة ومحاطاً بإطار من شعر طويل ولحية مسترسلة وعينين كبيرتين لطيفتين، وتعلوه ابتسامة ملائكية. أما صوته الرخيم فكان كأنغام الناي يستهوي القلوب. وقد كان مديد القامة، قوياً وهادئاً في نفس الوقت، جمع في شخصه رقة المرأة وبراعة الطفل السعيد. ولا أظن أن أية فكرة مثالية أخرى عن شاعر ملهم يمكن أن تجد لها تعبيراً أصدق مما تجده في هذا المنشد الوجداني الرقيق.

وعلى الفور دخلت مع طاغور في دراسة مقارنة ومعقدة لمعهدنا التربويين اللذين تم إنشاؤهما على أسس غير تقليدية. وقد وجدنا العديد من أوجه الشبه بينهما، كالتعليم في الهواء الطلق والبساطة وتشجيع روح الإبداع في الصغار. ومع ذلك فقد أولى رابندرانات أهمية كبيرة لدراسة الأدب والشعر والتعبير عن الذات بالموسيقى والغناء، وهو ما لاحظته

فعلًا في بهولًا. وكان فتیان السانتینیکیتان یمارسون فترات من الصمت، لكنهم لم یحصلوا على تدریبات خاصة فی الیوگا.

وأصت الشاعر بانتباه عمیق لشرح تمارین یوگودا التي تشحن خلايا الجسم بالنشاط والحيوية، وإلى أسلوب التركيز الیوگی الذي یتم تلقینه لجميع تلامیذ رانشی.

وأطلعی طاغور على مراحل كفاحه التعلیمی المبكر، وقال لی وهو یضحك: "لقد هربت من المدرسة بعد سن الخامسة." واستطعت أن أدرك على الفور كيف أن أحاسیسه الشعریة الرقیقة اصطدمت بجو المدرسة التأدیبی الرهب.

وأوماً الشاعر بفصاحة إلى مجموعة من الطلبة وهم یدرسون فی الحدیقة الغناء قانلا:

"لهذا السبب أسست معهد السانتینیکیتان تحت ظلال الأشجار وروعة السماء. إن الطفل یشعر بأنه فی بیئته الطبیعیة بین الأزهار والطيور المغردة حتى یتمكن من الإعراب عن الثروة الباطنیة لمواهبه الذاتیة. والعلم الحقیقی لا یمكن ضخه أو حشوه من مصادر خارجیة، بل ینبغی للعلم أن یمكن عوناً على الكشف عن كنوز الحکمة اللانهایة الكامنة فی أعماق النفس البشریة." (٢)

وافقته الرأي وأضفت قانلا: "النزعات المثالیة للأطفال وحبهم للأبطال والبطولات تموت سغياً فی المدارس العادیة لاقتصارها على غذاء قوامه الإحصانیات والأحداث والحقب التاریخیة." وتحدث الشاعر بمودة عن والده دیفندرانات الذي ألهمه الشروع فی السانتینیکیتان. قال: "لقد وهبني والذي هذه البقعة الخصبة التي كان قد شید فیها معبداً ومنزلاً للضیوف. وقد بدأت تجربتی التعلیمیة هنا فی سنة ١٩٠١ بعشرة أولاد فقط. والثمانیة آلاف جنیه التي جاءتني مع جائزة نوبل أنفقتها فی صیانة المدرسة."

وطاغور الأكبر (دیفندرانات) الذي اشتهر فی كل مكان بلقب مهاریشی (الحکیم الأكبر) كان رجلاً جديراً بالإكبار والاعتبار بحسب ما توحی به قصة حیاته. فقد قضى سنتین من شبابه فی التأمل فی خلوات الهملایا. وبالمثل كان والده دواركانات مشهوراً فی سائر البنغال بمبرآته العامة السخیة. ومن هذا البستان الطیب برزت أسرة من النابغین. فلم یكن رابندرانات وحده هو الذي تميز بالتعبیر المبدع، بل أقاربه أيضاً كانوا یشاركونه الإبداع. ویتبر ابن عمه جوجونندرا و أبانندرا من بین الفنائین المتمیزین<sup>(٣)</sup> فی الهند. وكذلك كان دویجنندرا شقیق رابندرانات فیلسوفاً بعيد النظر تحبه حتى الطيور و حیوانات الغابة.

ودعاني رابندرانات لقضاء اللیلة فی منزل الضیوف. ویا له من منظر رائع فی المساء عندما جلس الشاعر مع مجموعة من الطلاب فی باحة المنزل! وعاد الزمن إلى الوراء فیدا لی المشهد كصومعة قدیمة وبدا المترنم طاغور محاطاً بمریديه وقد غمرهم جو من البهجة والحب المقدس. وقد كان طاغور یحوك ویحبك كل رباط ودي بخیوط التناغم والوئام. یا له من زهرة نادرة من الشعر الروحی الأصیل تفتحت فی روضة الله واجتذبت إليها الآخرین بحسنها وأریجها الطبیعیین!

وبصوته العذب قرأ لنا رابندرانات بعضاً من أشعاره الحلوة الحديثة التأليف. ومعظم أناشيده ورواياته التي ألفها لإدخال البهجة والسرور على قلوب تلاميذه تم وضعها في سانتينيكيتان. وتتجلى روعة أشعاره بالنسبة لي في الإشارة إلى الله في كل بيت تقريباً بالرغم من عدم ذكر الاسم المقدس. فهو مثلاً يقول:

"عندما أنتشي بالغناء أنسى نفسي وأدعوك صديقي يا من أنت سيدي!"

وبعد الغداء في اليوم التالي ودّعت الشاعر على مضض. ويسعدني أن مدرسته الصغيرة قد نمت وتطورت إلى أن أصبحت الآن جامعة فيزفا بهاراتي الدولية<sup>(٤)</sup> حيث يجد فيها الطلاب من سائر البلدان بيئة مثالية.

حيث يتحرر العقل من المخاوف ويرتفع الرأس عالياً،

وحيث المعرفة حرة طليقة،

والعالم لم تحوله الجدران المحلية الضيقة إلى أجزاء مفككة،

وحيث تنبعث الكلمات من أعماق الحق،

وتمد الجهود المضنية أذرعها نحو الكمال،

وحيث ينبوع النقي للعقل لم يضل سبيله في الصحاري الرملية الموحشة

للمعادن الميتة،

وحيث يتقدم إلى الأمام في فكر وعمل دائم الاتساع،

لتستيقظ بلادي في سماء تلك الحرية يا أبتاه<sup>(٥)</sup>

رابندرانات طاغور

المصدر: مذكرات يوجي – السيرة الذاتية  
بقلم برمهنا يوغاندا  
ترجمة حديثة منقحة: محمود عباس مسعود

الحواشي:

- (١) تيجل الهند المستر أندروس الكاتب والمؤلف الإنكليزي والصديق الحميم للمهاتما غاندي بسبب خدماته العديدة لبلده الثاني (الهند).
- (٢) "النفس التي تعددت ولادتها، أو التي مثلما يقول الهنود: اجتازت طريق الولادات العديدة. . . لا يوجد شيء لم تعرفه، ولا عجب أن تتذكر. . . ما عرفته من قبل. . . لأن الاستقصاء والتعلم ليسا سوى تذكر وحسب." أمرسون في *Representative Men*
- (٣) عكف رابندرانات أيضاً وهو في الستين من عمره على دراسة جادة للرسم، وعرضت لوحات له عن المستقبلية منذ بضع سنوات في عواصم أوروبية وفي نيويورك.
- (٤) ومع أن الشاعر المحبوب توفي في سنة ١٩٤١ لكن معهده لا يزال مزدهراً. وفي شهر يناير كانون ثاني من سنة ١٩٥٠ قام فريق مكون من ٦٥ شخصاً بين معلم وتلميذ من سانتينيكيتان بزيارة لمدرسة رانشي استغرقت عشرة أيام. وترأس الفريق سري أس أن. غوشال رئيس جامعة فيزفا بهاراتي. وقد ابتهج الضيوف لقيام طلاب رانشي بإنشاء (بوجاريني) من روائع طاغور.
- (٥) عن كتاب غيتانجال (ماكميلان وشركاه). وهناك دراسة وافية للشاعر في كتاب فلسفة رابندرانات طاغور *The Philosophy of Rabindranath Tagore* تأليف العالم الهندي الذائع الصيت السر أس. رادهاكريشان (ماكميلان ١٩١٨).